المحاضرة السادسة :

المدخل الخلدوني – النظرية الخلدونية –

تمهيد:

بعد التطرق إلى الرواد الأوائل في علم الاجتماع، سوف نحاول من خلال هده المحاضرة الولوج في المحور الموالي ألا وهو المداخل النظرية في علم الاجتماع، حيث سنحاول من خلال هدا المحور أن نتعرض إلى المحاضرة الخاصة بالمدخل الخلدوني، و المحاضرة الخاصة بالمدخل الوضعي، و المحاضرة الخاصة بالمدخل الماركسي، فهده المداخل النظرية الثلاث تعتبر من أهم النظريات الكبرى في علم الاجتماع، و كل مدخل نظري تتفرع عنه مجموعة من النظريات.

المدخل الوضعي تتجزأ عنه النظرية الوظيفية و نظرية الفعل، أما المدخل الماركسي فيتناول النظرية الماركسية الكلاسيكية نسبة لكارل ماركس، و النظرية الماركسية المحدثة.

و فيما يخص المدخل الخلدوني، الخاص بهده المحاضرة سنحاول أن نتطرق إلى نظريات ابن خلدون في علم الاجتماع، كالعصبية، الصراع العصبي، أطوار الدولة الاسلامية.

لن نتطرق إلى نشأة ابن خلدون و تعريفه لعلم الاجتماع و الظواهر الاجتماعية، لأنه سبق و أن تم تناولها بالتفصيل في المحاضرة الثالثة لرواد علم الاجتماع– مؤسسي علم الاجتماع–.

1– مفهوم العصبية عند ابن خلدون :

من المفاهيم الرئيسية و الجوهرية لنظرية ابن خلدون هي العصبية التي وجب فهمها و شرحها من أجل فهم النظرية الخلدونية .

فالعصبية تتضمن صلات النسب خاصة بالمجتمع البدوي، حيث توجد صلة الدم و علاقات القرابة الناشئة عن النظام الاجتماعي. إن العصبية هي ارتباط داخل العشيرة و القبيلة و مجموعة الأقرباء الذين هم في نفس الدرجة تماما، كما أن المجتمع و أن كانت فيه عصبيات متعددة فلا بد أن تكون واحدة منها هي الأقوى.

من خلال هدا التعريف يتبين أن العصبية هي صفة ملازمة للمجتمع البدوي و القبلي و هي عبارة عن جماعة أفراد تربطهم صلات النسب، و المجتمع لا يحتوي على عصبية واحدة بل هناك عصبيات متعددة لكن الحكم يكون للعصبية الأقوى، بمعنى آخر العصبيات تختلف شدة ارتباطها و قوتها من عصبية إلى أخرى و الأقوى هي المسيطرة في دلك المجتمع.

إذن العصبية هي رابطة اجتماعية سيكولوجية، شعورية و لا شعورية معا، تربط أفراد جماعة ما، قائمة على القرابة، ربطا مستمرا يبرز و يشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة.

الأساس الحقيقي و الفعلي الذي تقوم عليه العصبية هو شيء آخر غير النسب، حقيقيا كان أو وهميا إنه بعبارة واضحة المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة.

يمكن القول هنا أن العصبية لا تربطها صلة النسب فقط، بل أن المصلحة المشتركة الدائمة بين أفرادها هي سبب آخر في ارتباطها، كما أن شدة ارتباط و تضامن أفراد العصبية يظهر جليا في حالة العدوان الخارجي.

و في مقام آخر يرى ابن خلدون أن النسب لا يعني ضرورة القرابة الدموية، بل إنه فقط العلامة المميزة للجماعة، فهو بمثابة ورقة تعريف جماعية لا غير، أما العصبية التي يقول عنها أنها ثمرة النسب، فهو في الحقيقة ثمرة الانتساب إلى عصبة معينة تتميز عن غيرها من العصبيات بتلك العلامة المميزة (النسب) و من هنا كان تعصب الفرد لعصبيته إنما يرجع إلى الألفة و طول المعاشرة، و ما ينتج عن دلك من تشبعه بعاداتها و تقاليدها و بالروح الجمعية السائدة فيها، و من ارتباط مصلحته و وجوده بوجودها، و بعبارة أخرى إنه لا معنى لكونه من هؤلاء إلا جريان أحكام و أحوالهم عليه و كأنما التحم بهم.

من خلال ما سبق يمكن تعريف العصبية على أنها:

دلك الشعور الذي يحس به جماعة من الأفراد تربط بينهم صلة الرحم، القرابة، النسب، المصاهرة، الجوار و الولاء، و لهم مصالح مشتركة دائمة، تدفعهم إلى الارتباط و التضامن فيما بينهم من أجل التصدي للعداءات الخارجية.

كما يمكن القول بأن ابن خلدون قد ربط قوة العصبية بشدة تضامن أفرادها، فكلما كانت شدة تضامنهم قوية كانت عصبيتهم قوية.

2- التضامن و الصراع العصبي:

يرى ابن خلدون إلى هدا الصراع باعتباره طبعا من طبائع العمران، فهو في نظره نتيجة طبيعتين بشريتين متناقضتين: **صلة الدم:** التي هي نزعة طبيعية في البشر مند أن كانوا من جهة و **الطبع العدواني** الذي يشكل أهم مظهر من مظاهر آثار الحيوانية فيهم من جهة أخرى.

كما اتخذ ابن خلدون من العصبية القبلية بين القبائل العربية و درجة تضامنهم و تطلعهم نحو التمدن و التحضر، مصدرا لتفسير تصادمهم و تصارعهم من أجل الكفاح في سبيل العيش و الحصول على السيادة و المال و الغذاء، ضف إلى دلك يرى ابن خلدون العصبية على أنها وازعا يربط القبائل البدوية فيما بينها من أجل الملك و القهر و الإستيلاء على ملكيات القبائل الأخرى و لصد الاعتداءات الخارجية، فهي بمثابة الدرع الحصين لهم .

إن العدوان كفعل عنفي الذي يتحدث عنه ابن خلدون و الذي يجعل منه الحافز الموقظ للعصبية يستهدف في الدرجة الأولى شؤون المعاش و لدلك تجدهم يختصمون باستمرار على مواطن الرزق بل و لا يجدون حرجا في الاعتداء على الأموال و الممتلكات و دلك بشهادة ابن خلدون نفسه.

و هكذا فالصراع العصبي ليس صراعا بين الدماء و لا راجعا إلى مجرد الإعتداء بالأنساب، بل هو صراع من أجل البقاء، صراع من أجل لقمة العيش، و إذا كان هدا الصراع لا يتخذ مظهرا اقتصاديا واضحا، و إنما يبدو في شكل صراع بين العصبيات أو الجماعات التي تنتسب إلى نسب معين، فما دلك إلا لطبيعة الظروف الاجتماعية الاقتصادية السائدة في العمران البدوي.

و العدوان الذي يتحدث عنه ابن خلدون هو عدوان العصائب بعضها ضد بعض، و بعبارة أخرى إنه الصراع بين العصبيات، الصراع الذي يلعب فيه النسب دورا لا يجب إهماله و التقليل من أهمية دلك لأنه على الرغم من أن النسب هو في الأصل رابطة جمع و توحيد، فهو أيضا عامل تفريق، فكما يجمع النسب أفراد العصبة الواحدة أو عصائب القبيلة الواحدة، فهو يعمل أيضا على إشاعة الفرقة و التنافر بين الجماعات و الأفراد الدين لا يربطهم نسب قريب أو بعيد، و أيضا فالسيادة التي هي عامل توحيد، قد تصبح عامل تفرقة نتيجة تنافس أفراد الأرستقراطية القبلية على الرئاسة.

يرى ابن خلدون أن للتضامن بين أفراد العصبية الواحدة، له دور كبير في الصراع العصبي حيث أنه" كلما زاد اتحاد و تعاضد أعضاء العصبية الواحدة (تضامن داخلي) يزيد من صراعاتها و تصادماتها الخارجية، بمعنى آخر أن التضامن الداخلي يولد التصادم و التنازع، و ليس العكس.

إضافة إلى دلك حاول ابن خلدون أن يصور الطبيعة البشرية من خلال زاوية متناقضة و هي (التضامن و التنازع) حيث تقوم الأولى على صلة الرحم بين أعضاء النسب الواحد و تقوم الثانية على السيادة، الملك و السؤود.

لم يستخدم ابن خلدون مصدرا واحدا –كما يعتقد البعض– في تفسير ظاهرة الصراع بل استخدم عامل الملك و السؤود، و التضامن الداخلي و الكفاح من أجل البقاء أساسا في تفسيره و تحليله لهده الظاهرة في المجتمع العربي.

الدولة أو الحكومة تظهر عندما يؤدي الصراع إلى استيلاء الجماعة الأقوى و الأكثر تماسكا و عصبية، و تنهار الدولة حين تدخل و تضعف عصبيتها، و يضمحل التضامن الاجتماعي المطلوب لحمايتها، فالعصبية، الدين و التضامن الاجتماعي عوامل أساسية في قيام الدولة.

من هنا يتضح أن الصراع العصبي هو صراع بين العصبيات من أجل البقاء و من أجل لقمة العيش، و أو في حالة التصدي للاعتداءات الخارجية أو العدوان الخارجي، و قد ربط ابن خلدون بين الصراع العصبي و التضامن داخلها، فكلما كان التضامن قويا بين أفرادها كلما كان الصراع و التصدي للعصبيات الأخرى قويا.

زد على دلك فقد وضح ابن خلدون على أن العصبية الأقوى هي العصبية الحاكمة، و الدولة القوية تستمد قوتها من قوة العصبية، و تنهار الدولة عند ضعف و انهيار العصبية.

3- الملك، وأطوار الدولة عند ابن خلدون:

بعد أن يقرر ابن خلدون ضرورة الاجتماع، و يشرح هده الضرورة من الناحيتين الاقتصادية و الدفاعية، يتحدث عن ضرورة قيام السلطة، حتى يستقيم هدا الاجتماع و يضمن له الاستمرار و يسود الانسجام في تعاون بني البشر بعضهم مع بعض، فيقول:"...ثم أن هدا الاجتماع إدا حصل للبشر كما قررناه و تم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان و الظلم، و ليست الأسلحة التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم فلابد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم على بعض (...) فيكون دلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة و السلطان و اليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان و هدا هو معنى الملك."

و كما أشرنا سابقا فإن من العوامل الرئيسية لقيام الدولة: العصبية، التضامن و الدين، فالعصبية القوية هي العصبية التي تتبع تعاليم الدين الإسلامي، و يكون تضامنها بين أفرادها قويا يجعل من الدولة قوية، و العكس صحيح، و هدا ما تم الإشارة إليه في العنصر السابق حول التضامن و الصراع العصبي.

يرى ابن خلدون أن مجتمع المغرب العربي لم يكن مجتمعا إقطاعيا على النحو الذي كانت عليه مجتمعات أوروبا في القرون الوسطى. فالملكية في المجتمع القبلي هي على العموم ملكية عائلية محدودة أو ملكية واسعة تشترك فيها عدة أسر على الشياع، فالملكية هنا ملكية جماعية، بمعنى أن أفراد القبيلة يشتركون كلهم في مبكية الأرض، و لكنها من ناحية أخرى ملكية فردية، بمعنى أن القبيلة باعتبارها شخصا معنويا، باعتبارها عصبة و هي ملكية جماعية بالنسبة للفرد داخل العصبة و ملكية فردية إدا نظرنا إليها من خلال انغلاق العصبة على نفسها انغلاقا يجعل منها شخصا معنويا واضح الكيان مستقل الشخصية، و من هنا كانت النزعات حول الأرض و ما عليها من خيرات تتم لا بين الأفراد، بل بين المجموعات، فكل اعتداء على أي مصدر من مصادر العيش الخاصة بعصبة معينة، هو في الحقيقة امتداد إلى مجموعة كلها حتى و لو كان دلك المصدر المعتدى عليه لا يستفيد منه إلا شخص واحد أو أسرة واحدة.

أطوار الدولة الاسلامية :

من خلال الدراسة التاريخية لابن خلدون حول الدولة الإسلامية و عوامل نشأتها و ازدهارها و اضمحلالها، خلص إلى قانون اجتماعي يحكم حركة المجتمعات البشرية، و هو **قانون الأطوار الثلاثة** للمجتمع البشري، فقد شبه حياة المجتمع بالكائن الحي في أدوار، الطفولة (النشأة و التكوين)، و الشباب و النضج و الرجولة (الازدهار)، و الشيخوخة (الهرم)، فمرحلة الطفولة أو النشأة و التكوين لدى الكائن الحي أو الإنسان، تقابلها في حياة المجتمع مرحلة البداوة، أو مرحلة القبلية، التي تقوم على العصبية و الدعوة الدينية، و مرحلة النضج وهي اكتمال الرجولة لدى الإنسان، تقابلها في حياة المجتمع مرحلة التحضر، و التي تكتمل شروطها برسوخ دعائم الملك، حيث يتاح لأفراد المجتمع خلاله الركون إلى السكون و الاستماع بثمار الحضارة و التمدن، أما مرحلة الشيخوخة لدى الإنسان، فتقابلها في حياة المجتمع مرحلة الهرم، حيث يدب الفساد في نواحي الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الأخلاقية و الدينية، و كما تنتهي الشيخوخة بجسم الإنسان إلى الموت، كذلك فإن الهرم ينتهي بالمجتمع إلى الموت، أو كما عبر ابن خلدون"فإن الهرم إدا نزل بدولة فإنه لا يرتفع"

سعى ابن خلدون إلى أن يجدد عمر الدولة معتبرا الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص حيث قال: "أن عمر الدولة في الغالب ثلاثة أجيال لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة و خشونتها و توحشها من شظف العيش، و لا تزال صورة العصبية محفوظة فيهم...، و الجيل الثاني تحول حالهم بالملك و الترف من البداوة إلى الحضارة، و من الشظف إلى الترف، و الخصب و من الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به و كسل الباقين عن السعي فيه فتنكسر صورة العصبية بعض الشيء...، و أما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة و الخشونة كأن لم تكن فيصيرون عيالا على الدولة...فإدا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته، فيحتاج صاحب الدولة حينئد إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة و يستكثر بالموالي و يصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء حتى يتأدن الله بانقراضها فتدهب الدولة بما حملت."

من خلال القول السابق لابن خلدون يمكننا الاستخلاص على أن حياة الدولة حددت بثلاث أجيال رئيسية، كل جيل حدده ابن خلدون بـ 40 سنة، أي أن عمر الدولة 120 سنة، و هده الأجيال هي كالتالي:

الجيل الأول: عرف هذا الجيل بالتطور و التقدم، رغم ضعف إمكانياته لأنه بدأ من الصفر و كان بحاجة إلى توفير جميع متطلباته، فسعى إلى الإنتاج أي أن هذا الجيل في هذه المرحلة كان جيلا منتجا هدفه تحسين مستوى معيشته فوصل إلى ذروة التطور و التقدم الإنساني، أما العصبية في هذه المرحلة فقد كانت على درجة عالية من القوة، بحيث أن الحاكم هنا لا يقطع صلته بالقبيلة و يعمل على تحقيق مطالبهم و إشباع حاجاتهم.

الجيل الثاني : هذا الجيل يلي الجيل الأول، و يتميز بالاستقرار و الثبات أي أن هذا الجيل لا يعرف تطورا و تقدما عن الجيل السابق، بل يواصل في استهلاك ما تم إنتاجه في الجيل الأول، فعرف بالجيل المستهلك، كما نلاحظ نوع من الاهتزاز في العصبية، بحيث يدخل الحاكم في تناقض و صراع مع قبيلته من خلال خدمة مصالحه الخاصة و حاشيته، فتبدأ العلاقة بينه و بين أفراد مجتمعه في التصدي و التلاشي شيئا فشيئا، كما يلجأ الملك إلى الإستعانة بأشخاص أجانب غير أفراد قبيلته في الحكم.

الجيل الثالث:يصل في هذه المرحلة التناقض و الصراع بين العصبية و الملك إلى قمته، بسبب انهيار الملك الذي كان ينفق على مساعدي الحاكم و الذين هم ليسوا من عصبيته، كما تعرف هذه المرحلة سقوطا و انحطاطا للدولة، فقد ساد الفساد الذي ورثه هذا الجيل عن الجيل الثاني وانغمس في الشهوات و الملذات، فتسقط العصبية و بالتالي تنزل إلى الصفر.

إن مراحل حياة الدولة تعتبر دورة حلزونية، تنطلق من الصفر و تنتهي عند الصفر، و لا تستطيع الدولة أو العصبية إعادة بناء نفسها أي العمل على تطويرها إلا إذا كان المجتمع يعيش حالة الوعي. لقوله تعالى:﴿ إن الله لا يغير بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ .

خلاصة:

لقد تم التنبيه في المحاضرة الثالثة على أن العلامة ابن خلدون هو المؤسس الأول لعلم الاجتماع ، فقد حدد موضوعه و منهجه، و أعطى الكثير من الأفكار الاجتماعية التي ترجمت في عدة نظريات سوسيولوجية حاول من خلالها تحليل و تفسير المجتمعات التي عايشها، لكن للأسف فكره الاجتماعي – رغم أهميته– تم إهماله لقرون إلى غاية القرن التاسع العشر حين أسس علم الاجتماع على يد أوغست كونت، تم الكشف على أن ابن خلدون كان سباقا في تأسيسه لهدا العلم و قد سماه بعلم العمران البشري،

فأغلب الأفكار الخلدونية التي تم عرضها في كتابه الشهير المقدمة هي أفكار تم تناولها و عرضها من بعض رواد علم الاجتماع الحديث، هدا ما يبرهن قيمة و أهمية أفكاره.

لقد ركز ابن خلدون في نظريته للصراع العصبي و الملك و أطوار الدولة على مفهوم العصبية التي كانت تلعب دورا هاما في تلك الفترة، و في تفسيره للنظريات السابقة كان يستدل كثيرا بالدين الإسلامي، حيث كان يرى بأن قوة العصبية تكمن في إتباعها لتعاليم الدين الإسلامي، كما أن تطور الدولة و سقوطها يرجع إلى مدى تمسكهم بالعصبية و الدين.

قائمة المراجع المعتمدة:

1- علي سموك . إشكالية العنف في المجتمع الجزائري من أجل مقاربة سوسيولوجية. الجزائر: مختبر التربية، الانحراف و الجريمة في المجتمع، 2006.

2- غني ناصر حسين القريشي. المداخل النظرية لعلم الاجتماع. ط1. عمان: دار صفاء للنشر و التوزيع، 2011

3- معن خليل عمر. نقد الفكر الاجتماعي المعاصر-دراسة تحليلية و نقدية- . ط2. بيروت: منشورات دار آفاق الجديدة، 1991

4- نبيل عبد الحميد عبد الجبار.تاريخ الفكر الاجتماعي. د.ب: دار دجلة، 2009